وصيةُ نافعةُ جامعةُ لرابع الخُلفاء الرَّاشدينَ عليّ بنِ أبي طالبٍ لابنِهَ الحَسَنِ رضَيَ اللهُ عنهُم

محمد ياسر الدباغ

كتابةَ الوصية سُنَّة واجبَةٌ، إنّ المُتأمّلَ في سيرة وحياة بُناة الأجيال والعُظماء والمُصلحينَ، من لَدُن آدمَ أبي البَشر، ومُروراً بالأنبياء وسيِّد المُرسلينَ مُحمَّد صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم، يرى ثمارَهُمُ اليانعةَ في حياتهم، وبَعْدَ مَماتهم، ويعلَمُ عِلْمَ اليقين أنَّ كلامَهُم ينبعُ من قلب مُفعَم بالإيمان، ومُشْرَب بتعاليم القرآن؛ لأنَّهُم تعلَّموا وجمَعوا الإيمانَ والقُرآن معاً.

وهذا الكلامَ جزلٌ فصْلٌ، لا هذرَ فيه ولا مَذرَ، يدلُّ على عُلوِّ شأنهم، ورفعَة مَنزلَتهم، وكما قالَ نبيُّ الله عيسى-وهو كَلِمَةُ اللهِ ورُوحٌ منْهُ عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاة والسَّلام: "من ثمارهم تعرفُونَهُم" . فَسَيِّدُنا ونبيُّنا مُحَمَّدٌ صلّى الله عليه وآله وصَحبه وسلَّم هُوَ أُستاذُ الحَياة ورُوحُ وُجودها؛ أحْيا أُمّةً أطفالُها أبْطالٌ، وأبْطالُها رِجالٌ، وفتيانُها فُرسانُ السِّنانِ واللِّسان.

فاللِّسانُ تَرجمانُ الجَنانِ، به يُعرَفُ الإنسانُ، ويُستدَلُّ بنُطْقه على الفصَاحة، والبيان، والتِّبيان.

وكما قالَ عليُّ بنُ أبي طالب رَضيَ الله عَنهُ: "المَرءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لسانه، فإذا تكلَّمَ عَرَفنَاهُ".

وهذا الكلامُ النافعُ الماتعُ الجامعُ، يخرُجُ من مشكاة القُرآن الكريم، والسُّنَّة المُطهَّرة؛ فقد قال تعالى: "يا أيُّها الذينَ آمَنُوا شَهادةُ بينكُمْ إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ حينَ الوصيَّة اثنانِ ذَوا عَدْلٍ منكُم" سورة المائدة (١٠٦)، وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وصَحبه وسلَّمَ: "ما حقُّ امْرِىء مِنْكُمْ لَهُ شيءٌ يُوصَى فيه يَبيتُ لَيلَتَيْنِ وفي رواية ثلاثَ لَيالٍ إلاّ وَوَصيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ" رواه البخاريُّ وغيره؛ إنّهُ كلامٌ يُظهرُ مدى فقههم للحياة والكون الإنسان.

الحياة بكُلِّ مَضامينها وأبعادها الإنسانية والحضَارية؛ لأنَّ المُسلمَ الحقَّ ينظرُ بنُور الله تعالى؛ فيَرى الأشياءَ على حقيقتها وَجوهَرها، ولا يُخدَعُ، ولن يَنخَدِعَ بزَيفها وبَهرَجها.

هذا وقدْ أوصَى الخليفةُ الرَّاشديُّ الرَّابعُ سيِّدُنا عليُّ بنُ أبي طالب ابْنَهُ الحسنَ وهو والحُسين سيِّدا شباب أهْل الجنّة في الجنّة أوصَاهُما بوصَايا كُتبتْ بدَم القلب، ودمْع العَين، ولا تدعُ مَجالاً لمستزيد؛ ولَمْ لا؛ فالفَرْعُ يُعرَفُ بأصله، والثَمَرُ يُعرَفُ بطَعمه، والعُودُ يُعرَفُ بطيبه، والمَعدنُ يُعرَفُ بجَوهَره، والمُعلِّمُ يُعرَفُ بطُلابه، وقد ذكّرَهُ باللّه تعالى وخشيته، والالتزام بأوامره.

وحذَّرَهُ من مَعصيته وَشرِّ عقابه.

وعرَّفَهُ الأشياءَ على حَقيقتها، ومُعادَلَة الأعمال ومآلاتها؛ وما فيها من اعتقاد واقتصاد.

وَجمَعَ في وصيَّته الجامعَة النافعَة الماتعَة؛ عَلاقةَ الإنسانِ معَ خالقه عزَّ وَجلَّ، وعَلاقةَ الإنسانِ معَ مُجتمَعه وَوَطنه، وعَلاقةَ الإنسانِ معَ نفْسه وقلبه؛ وهو القائل:

وَتَزعُمُ أنَّكَ جِرْمٌ صغيرٌ وَفيكَ انطوى العالَمُ الأكْبَرُ

إنّها شملَتْ التعاونَ والتكافلَ، وبيّنتْ حقيقةَ النفس البشرية وما تنطوي عليه من خَفايا وخَبايا، وبيّنتْ بجلاء ووُضوح؛ كيفَ يأنَسُ الإنسانُ بخالقه، ويَسكنُ رضا مولاهُ في قلبه، فتطمئنَ نفسُه، ويَنشرحَ صدرُه، ويَنوَّرَ عقلُه، ويسموَ هدفُه، وتعلوَ هِمَّتُهُ، وتزكوَ نفسُه؛ ليبنيَ أمَّتَهُ، فيسعَدَ ويُسعد بما فيه صلاحُ الدُّنيا وفلاحُ الآخرة فيقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به عليُّ بنُ أبي طالب، أوصى أنّه يشهدُ أنّ لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنّ مُحمَّداً عبدُهُ ورسولُه، أرسلَهُ بالهُدى ودين الحقِّ؛ ليظهرَهُ على الدِّين كُلِّه، ولو كَرِهَ المُشركونَ، ثُمَّ إنّ صَلاتي ونُسُكي ومَحياي ومَماتي للّه ربِّ العالمينَ لا شريك لهُ، وبذلكَ أُمرتُ وأنا منَ المُسلمينَ، ثُمَّ أُوصيكَ يا حَسَنُ وجميعَ أهلي وولَدي بتقْوى اللهِ ربِّكُم ولا تموتُنَّ إلاّ وأنتُم مُسلمونَ؛ فاعتصموا بحَبل اللّه جميعاً، ولا تفرّقوا، فإنّي سَمعتُ أبا القاسم صلّى الله عليه وسلَّم يقول:

"إنّ صَلاحَ ذات البَيْن أفضَلُ منَ عامَّة الصَّلاة والصِّيام"

انْظُروا إلى ذويْ أرحامكُم؛ فَصلوهُم يُهوِّن اللّه عليكُم الحسابَ،

اللّه اللّه في الأيتام؛ فلا تعنوا أفواهَهم ولا يُضَيَّعَنَّ بحضْرتكُم،
اللّه اللّه في جيرانكُم؛ فإنّهُم وصيَّةُ نبيِّكُم صلّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: ما زال يُوصي به حتّى ظنَنّا أنّهُ سَيُوَرِّثُه،
اللّه اللّه في القُرآن؛ فلا يَسْبِقَنَّكُم إلى العَمل به غيرُكُم،
واللّه اللّه في الصَّلاة؛ فإنّها عَمودُ دينكُم،
واللّه اللّه في بيت ربِّكُم فلا تخلّوهُ ما بَقيتُم؛ فإنْ تُرِكَ لمْ يُناظرْ،
واللّه اللّه في الجهاد في سبيل اللّه بأموالكُم وأنْفُسكُم،
واللّه اللّه في الزَّكاة؛ فإنّها تُطفِئُ غضَبَ الرَّبِّ،
واللّه اللّه في ذمَّة نبيِّكُم؛ فلا يُظلَمَنَّ بينَ أظْهُركُم،
واللّه اللّه في أصحاب نبيِّكُم؛ فإنّ اللّه أوصى بهِم،
واللّه اللّه في الفُقراء والمَساكين؛ فأشركُوهُم في مَعايشكُم،
واللّه اللّه في ما ملكتْ أيمانُكُم،
الصَّلاةَ الصَّلاةَ لا تَخافُنَ لومَةَ لائم، يكْفيكُم مَنْ أرادَ وبغَى عليكُم،
وقُولُوا للناس حُسْناً كما أمرَكُم اللّه،
ولا تتْركُوا الأمرَ بالمَعروف والنهيَ عن المُنكَر؛ فَيُولّى الأمرَ شرارُكُم، ثُمّ تَدعُونَ فلا يُستجابُ لكُم،
وعليكُم بالتَّواصُل والتَّباذُل، وإيّاكُم والتّدابُر والتّقاطُع والتَّفرُّق (وتعاوَنُوا على البرِّ والتّقوى وَلا تعاونُوا على الإثم والعُدوان واتّقوا اللّه إنّ اللّه شديدُ العقاب)،
حَفظَكُمُ اللّهُ منْ أهل بيت وحَفظَ فيكُم نبيِّكُم،
اسْتَودعكُم اللّه وأقرأُ عليكُم السّلامَ ورحمةَ اللّه.
ثُمَّ لمْ ينطقْ إلاّ بلا إلهَ إلاّ اللّه حتّى قُبِضَ رَضيَ اللّهُ عنهُ.
وجاءَ في رواية أُخرى:.. يا بنيَّ:
أُوصيكُم بتقْوى اللّه في الغَيب والشهادة،
وكلمَة الحقِّ في الرِّضا والغَضَب،
والقصد في الغنى والفَقْر،
والعَدل على الصَّديق والعدوِّ،
والعَمل في النَّشاط والكَسَل،
والرِّضا عن اللّه في الشِّدَّة والرَّخاء،
يا بنيَّ ما شرٌّ بعدَهُ الجنّةُ بشرٌّ، ولا خيرٌ بعدَهُ نارٌ بخير، وكُلُّ نعيم دونَ الجنَّة حقيرٌ، وكُلُّ بَلاء دونَ النّار عافية،
يا بنيَّ مَنْ أبْصَرَ عَيبَ نفسه شُغِلَ عنْ عَيب غَيره،
ومَنْ رَضيَ بقسَم اللّه لَمْ يحزَنْ على ما فاتَهُ،
ومَنْ سَلَّ سيفَ بَغي قُتلَ به،
ومَنْ حَفَرَ لأخيه بئراً وقَعَ فيها،
ومَنْ هَتَكَ حجابَ أخيه كَشَفَ عَورات نفسه،
ومَن نَسيَ خَطيئَتَهُ اسْتعظَمَ خطيئةَ غَيره،
ومَنْ أُعجبَ برأيه ضَلّ،
ومَن اسْتَغْنى بعقله زلَّ،
ومَنْ تَكبَّرَ على النّاس ذلَّ،
ومَنْ خالَطَ الأنذالَ احتُقرَ،
ومَنْ دَخَلَ مداخلَ السُّوءِ اتُّهمَ،
ومَنْ جالَسَ العُلماءَ وُقِّرَ،
ومَنْ مَزَحَ اسْتُخفَّ به،
ومَنْ أكثرَ منْ شيء عُرفَ به،
ومَنْ كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ خَطؤُه،
ومَنْ كَثُرَ خَطؤُهُ قلَّ حياؤُه،
ومَنْ قلَ حياؤُهُ قلَّ ورَعُهُ،
ومَنْ قلَّ ورَعُهُ ماتَ قلْبُه،
ومَنْ ماتَ قلْبُهُ دَخَلَ النّارَ.
يا بنيَّ العافيةُ عَشَرَةُ أجزاء: تسْعةٌ منها في الصَّمت إلاّ منْ ذكْر اللّه، وَواحدَةٌ في ترك مُجالَسة السُّفهاء،
يا بنيّ زينةُ الفقر الصَّبرُ، وَزينةُ الغنى الشُّكرُ،
يا بنيَّ: لا شَرفَ أعلى من الإسْلام،
وَلا كَرَمَ أعزُّ منَ التَّقوى،
لا مَعقلَ أحرزُ منَ الورع،
وَلا شفيعَ أنجحُ منَ التَّوبَة،
وَلا لباسَ أجملُ منَ العَافية،
الحرصُ مفتاحُ التَّعَب، ومَطيَّةُ النَّصَب،
التدبيرُ قَبلَ العَمل يُؤمنكَ النّدَمَ؛ فبئسَ الزَّادُ إلى المَعاد العُدوانُ على العباد،
طُوبَى لمَنْ أخلَصَ للّه علْمَهُ وعَمَلَهُ وحُبَّهُ وبُغضَهُ وأخْذَهُ وَتركَهُ، وكلامَه وصَمتَهُ وقَولَهُ وفعلَهُ.

المصدر: تاريخ أبي جعفر الطَّبريّ (٦/٦٣،٦٤) والشُّهُب اللامعةُ في السِّياسَة النافعة: لعبد اللّه بن يوسف بن رضوان المالقي، دار المدار الإسلامي لبنان الطبعة الأولى (٦٣٢،٦٣٣) وخامس الخُلفاء الراشدينَ أمير المُؤمنينَ الحَسَنُ بنُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضيَ اللّه عنهُما: شخصيَّتُه وعصرُه، (١٦٧،١٦٨) تأليف الدكتور: عليّ مُحمّد مُحمّد الصَّلاّبي.